فسحة الجوع والخوف
وكيف تبدّدت بتضحيات الشعب السوريّ الأبيّ؟

■ أ.د. عبد النبي اصطيف

ربما كانت النعمة الأسمى التي منّ الله بها على خلقه هي نعمة الحياة، وإذ يتنسّم المخلوق – الإنسان أولى نفحاتها فإنه يستنشق معها نعمة الحريّة، أي تلك النعمة التي تليها في الفضل، والتي خصّ بها الإنسان الذي كرّمه، وجعله في أحسن تقويم، على حين إن نعمة الحياة منحة إلهية خالصة لا يملك منحها غير الله عزّ وجلّ فإن نعمة الحرّيّة التي يفترض أن يمتلكها الإنسان بمجرّد ولادته (فالناس يولدون أحراراً، كما يؤكّد ذلك الخليفة الراشدي الثاني، الفاروق عمر بن الخطاب)، بحاجة إلى من يكفلها، وما يكفلها، وبعبارة أخرى: إن على من يكفل نعمة الحرّيّة أن يكفل الشروط والظروف التي تسمح بممارستها، والتي تدخل ضمن دائرة الشعور بالأمن: وأهمّها الغذاء، والأمان، فالجائع الذي يقضّ الجوع مضجعه لا يمكن أن يكون حرّاً فيما يتخذه من قرارات، وكذا شأن الخائف الذي يبدِّد خوفُه أيّ درجة من درجات الحرّيّة التي يُفترَض أنه يمتلكها منذ ولادته.

وعندما يكفل الله لقوم نعمتي الحياة والحرّيّة، فإن أقل ما يجب عليهم من شكرٍ واهبهما هو عبادته، وهذا ما توضّحه "سورة قريش" التي يأمر بها الله عز وجل تلك القبيلة التي فضّلها على سائر القبائل بما كفله لها من الحرّيّة وشرطيها اللازِبيْن: الغذاء والأمان، فقد أطعمها من جوع بما يسّره لها من حصيلة رحلتيها المشهورتين: إلى اليمن في الشتاء، وإلى الشام في الصيف، وآمنها من خوف بأن أسكنها بواد غير ذي زرع عند بيته المحرّم وكفل لها بذلك الحماية والأمان-"إن للبيت ربّاً يحميه"، هذا ما قاله عبد المطلب، جدّ النبي محمد صلى الله عليه وسلم، لأبرهة الحبشي الذي أراد هدم الكعبة، وبعبارة أخرى: لقد كفل الله عزّ وجلّ لقريش الأمن الغذائي، والأمن الحياتي، وباختصار شديد لقد منحها نعمة الحياة، وشفعها بنعمة الحرّيّة: بتأمين معاشها من جهة، ونزع الخوف من حياتها بتأمين فسحة هذه الحياة من جهة أخرى.

واستبعاد الجوع والخوف من حياة أيّ مجتمع هو السبيل الوحيد للحفاظ على طبيعته الإنسانية، وبالمقابل فإن ترسيخهما فيه هو نفي لإنسانيته، والمُتابع لسياسة الصهاينة في تعاملهم مع الشعب الفلسطيني، يستطيع أن يدرك ما يكمن وراء حرمان هذا الشعب من نعمتي الغذاء والأمان: حرمانه مما يقيم أوده، وإجباره، من ثَمَّ، على أن ينصرف إلى البحث عما يمنع عنه الجوع من جهة؛ وجعله، من جهة أخرى، يعيش في خوف دائم في وطن لا سيادة له فيه على أرضه، ولا تقرير مصير له ولأبنائه يختاره بنفسه، هذا على الرغم من أنه يعيش في أرض مقدّسة بارك الله فيها وبارك ما حولها، إذ كان مسرى النبي صلى

الله عليه وسلم إليها، ومنها كان معراجه إلى سدرة المنتهى، ولكنها باتت تفتقد الحماية من الجوع والخوف بسبب تخاذل العرب والمسلمين في نصرة أهلها.

وكما كان شأن النظام البائد في إفادته في إنشاء نظامه الأمني من العدوّ الصهيوني ومن ممارساته في احتواء مقاومة أشقائنا الفلسطينيين ونضالهم لاستعادة حقّهم في تقرير مصيرهم، واستعادة سيادتهم على أرضهم التي ورثوها منذ آلاف السنين عن الآباء والأجداد، فقد استنسخ هذا النظام مختلف أساليب القمع الصهيوني في مواجهته لثورة الشعب السوريّ، بل إنه طوّرها ليجعلها أكثر نجاعة في إحباط تطلعات هذا الشعب وطموحاته في بناء مجتمع حديث تسوده العدالة والمساواة والكرامة، وهكذا رأيناه منذ تسنّمه مقاليد الأمور في سورية بانتزاعها بالقوة الغاشمة إلى التضييق على شعبها من الناحية المادية، وجعله ينصرف بكل طاقاته إلى البحث عن لقمة عيشه، وحوّله إلى شعب لا يعرف أيّ لون من العيش الكريم، أو أيّ ضرب من ضروب الرفاهية التي تنعم بها الشعوب الأخرى.

استنسخ هذا النظام مختلف أساليب القمع الصهيوني في مواجهته لثورة الشعب السوريّ، بل إنه طوّرها ليجعلها أكثر نجاعة في إحباط تطلعات هذا الشعب وطموحاته في بناء مجتمع حديث تسوده العدالة والمساواة والكرامة

فعلى سبيل المثال يتحوّل النمر في قصة زكريا تامر "النمور في اليوم العاشر"[1] من حيوان لاحم شرس مفترس لا يمكن ترويضه إلى حيوان نباتي مسالم ينقاد لرغبة مروِّضه ويمتثل لأوامره بتوظيف سلاح التجويع التدريجي وإجباره في نهاية المطاف على تناول غذاء لم يخلق له ويتنافى مع طبيعته الفيزيولوجية وتاريخ نوعه الطويل.

وكذلك فإن "الأوّل" في قصة: "الخارجون من الكهف"[2] هو ذات إلهية قادرة على كلّ شيء، لا رادّ لمشيئتها، تعطي وتمنع، وهي الأوّل والآخر والظاهر والباطن والمهيمن والقادر والعالم إلى غيرها من الأسماء/ الصفات الحسنى، وهي لذلك ينبغي أن تطعم من جوع وتؤمّن من خوف، والناظر إلى هذه "العلامة" sign في القصة التامرية أو في النظام الدلالي الذي تشكّله يتبين أنّها قد احتفظت ببعض خصائصها من جانب، وتخلت عن بعضها الآخر من جانب آخر، وكانت الحصيلة في النهاية أنّها لم تعد "أوّلاً" بل غدت "ثانياً"، لقد حلّ محلها "الجوع" إله الزمن البائس الذي يعيشه هذا المجتمع، فعلى الرغم من أنّ هذا "الأوّل" ظلّ يستجيب لدعاء خلقه من الأيتام، ويقهر الموت من أجلهم، ويتعاطف معهم، فإنّه يقف عاجزاً أمام الحقيقة الكبرى التي حلّت محلّ الموت في الواقع، وهيّ حقيقة "الجوع" التي تغدو "الأوّل" الفعلي في النظام الدلالي التامري، ومما يلفت النظر في هذا الجوع أنّه جوع كليّ شامل للأرض والسماء معاً، ويشترك فيه المخلوق والخالق معاً، وربما يتساويان أمامه أو يتفقان في ثانويتهما بالقياس إلى جبروته وقوته اللذين لا يقهرهما قاهر.

والرجل الغريب العجوز الذي استجاب لدعاء المتحلقين حول أمّهم الميْتة المسجاة على السرير، وخفّ لمساعدتهم، وأتاهم من حيث لا يدرون، وشكك في حقيقة موت هذه الأمّ، ولكزها، ففتحت عينيها، وتثاءبت، ونهضت من سريرها أكثر شباباً منهم، يقف عاجزاً أمام الحقيقة الأكثر أهمية، وهي جوع هذه الأسرة (الذي أودى بحياة الأمّ، وربما بحياة الأبّ قبلها، ويتهدّد الآن أولادها الشباب بعد عودتها مثلما يتهدّدها، وهيّ تعرف معنى تهديده، وتدركه على حقيقته، فيقول للأيتام إنّه لم يأكل منذ أن وجد (وسبب عدم أكله بالطبع ليس كونه إلهاً وإنما سببه شمولية الجوع)، ويستثير بذلك رثاء أفراد الأسرة لحاله وحالهم، ويبدو أنّ الجوع أو هذا "الأوّل" ليس قادراً فقط على الصمود أمام قوة الرجل الغريب العجوز الذي قهر الموت بل على تحييد هذه القوة وربما نفيها أو جعلها تشعر بالعجز (كأنّ زكريا تامر أراد أن يرهص بعجزها هذا، فنعت الرجل بأنّه غريب وعجوز)، ولكن أليس الجوع كافراً لا يعرف إيماناً ولا إلهاً ولا أوّل ولا آخر؟ ومتى كان الجوع يقيم وزناً لأيّ مقدس أو مبجّل أو مجمع عليه؟ إنّه ليس إلّا نتاج الفقر الذي يكاد يكون كفراً في ثقافة الواقع الذي استمدّ منه زكريا تامر مكوّنات نظام علاماته التي ناقضت في البداية دلالاتها ومعانيها وما كان يلازمها في هذا الواقع، ولكنّها أنتجت في النهاية دلالة ومعنى يظفران بإقرار تامّ بهما من هذا الواقع، وموافقة صريحة عليهما من كلّ من هوّ حيّ فيه، وبإجماع يتجاوز الزمن والمكان لأنّه مرتبط بمُثل الأمّة وقيمها ومبادئها التي لا ترضى للجوع هذه المكانة، وتنفيها لمصلحة الإيمان، وهوّ أمر تقرّه الثقافات والأمم الأخرى التي تجمع بدورها على أنّه ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، ومن ثمّ لا يمكن إلاّ أن تثور على أيّ تحوّل عن هذا المبدأ، وهكذا تبدو القصة نذيراً شديد اللهجة من هذا

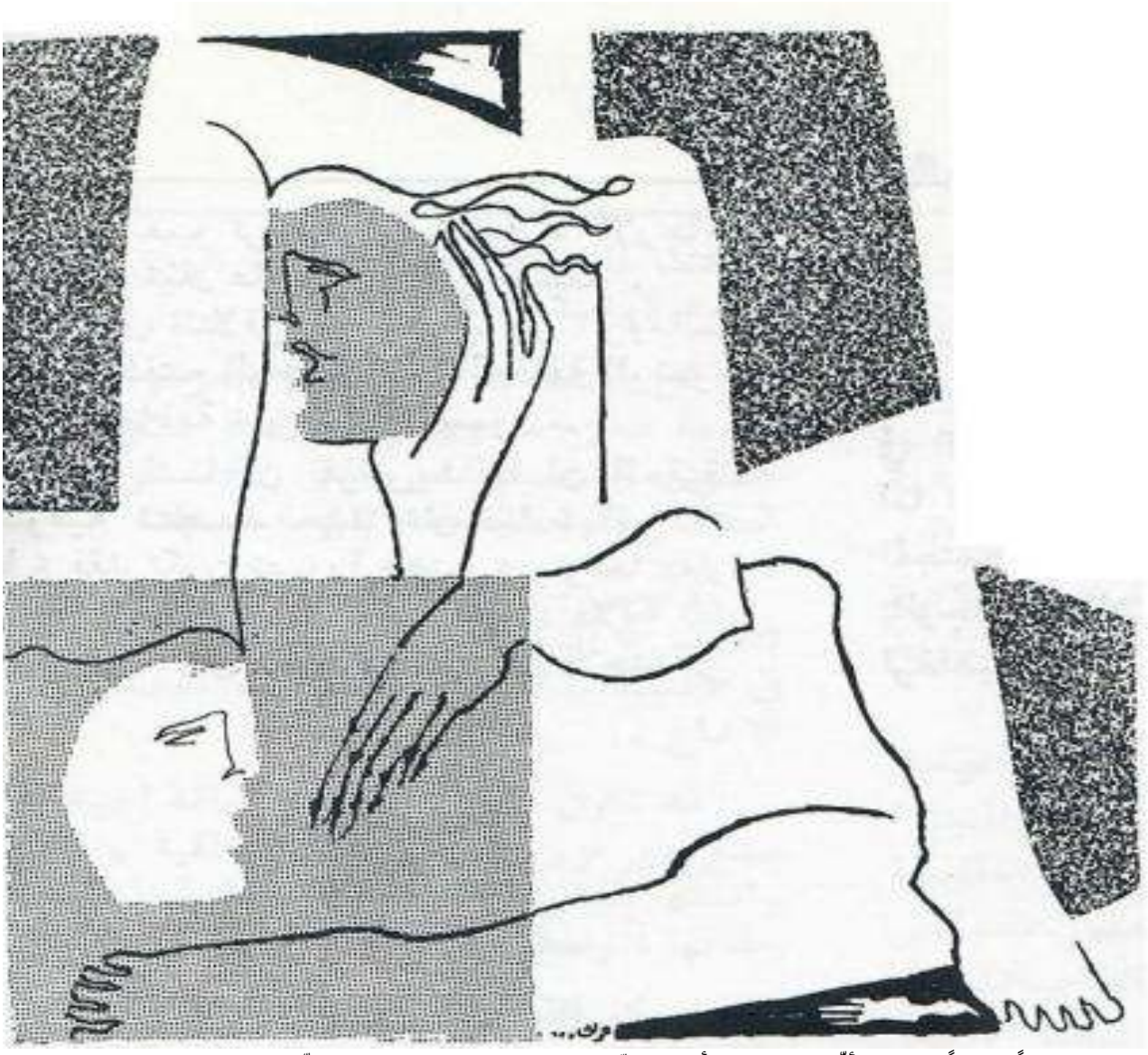

التحوّل ورفضاً مطلقاً للجوع لأنّه سيملي مبدأه الخاصّ، وهو: "إنما بالخبز وحده يحيا الإنسان."

كما أن النظام البائد من ناحية أخرى أخضع الشعب السوريّ لضروب من القيود التي أحاطت بمختلف وجوه حياته، إلى درجة تحوّلت بها الجمهورية العربية السورية إلى "جمهورية خوف"[3] انسرب في جميع جوانبها حتى خالط حياة الأسرة الواحدة التي بات أفرادها يخاف بعضهم بعضاً، بل إن المواطن كان على يقين من أنه، حتى بعد الخضوع للخوف والاستسلام له، لن يتمكّن من الإفلات من ملاحقة السلطات له، بل كان غير متأكد من أنه سيبقى حيّاً، ففي قصّة: "الخوف"[4] نراه يختبئ في جوف تفاحة، عندما يخُيّل إليه أنه قد أحيط به، ولا تلبث أن تبتلعه دودة، لتخرج من التفاحة ويتمتع بعدها بقسط من الحرّيّة، غير أنه سرعان ما ينقضّ عليه عصفور دوري يُقبَض عليه بعد أيام، ذلك أنه لا مفرّ من سلطان النظام، الذي ما فتئ، منذ تسنّم السلطة، يستخدم التجويع والتخويف لترويض هذا الشعب وتحويله من شعب يعشق الحرّيّة، وينشد الكرامة، إلى مجموعات متفرّقة متنافسة على إظهار الولاء والطاعة له، والامتثال للتعليمات والتوجيهات التي باتت تنظّم مختلف وجوه حياتها، وتراها طبيعية، وقد تحقّق له ذلك بمساعدة فئة قليلة من المنتفعين الطفيليين، الذين لم يروا في الدين الحنيف غير الامتثال إلى إرادة أولي الأمر، وتغافلوا عن حقيقة لا يغفل عنها عاقل، وهي أن سلطان أولي الأمر في سوريا، كان سلطاناً غير شرعي، وأن ولايتهم كانت ولاية لا تستند إلى شرع إلهي أو قانون وضعي، وأن هذه الولاية إنما تأتت لهم بالقوة الغاشمة وحدها، وبممارساتهم القمعية التي لا تعرف الحدود، تماماً كما كان شأن الكيان الصهيوني الذي تؤكّد السردية الصهيونية أن لاجئيه قد فرّوا إلى فلسطين هرباً من الاضطهاد الأوروبي، ولكنهم تحوّلوا لاحقاً، بمساعدة سلطات الانتداب البريطاني وتواطئها، إلى

عصابات إرهابية مجرمة اغتصبت أرض من لجأت إليهم، بالقوة الغاشمة، والمجازر المتلاحقة، وجهدت منذ إعلان دولتهم، غير الشرعية، والتي لا تعرف لها حدوداً ولا تعتمد أيّ دستور، بمساعدة الغرب كذلك إلى إخضاع من تبقّى من سكّانها الأصليين بمختلف أساليب القمع والتنكيل وأشكال التمييز العنصريّ.

وهكذا فقد كان من الطبيعي أن يقاوم الشعب السوريّ الأبيّ الذي يفخر بِعِزّته، التي استمدّها من دينه الحنيف، وبكرامته التي احتفظ بها على مدى القرون، هذا القمع الذي شمل جميع وجوه حياته، وأن يلفح الحديد بالحديد.

وهكذا فإنه قاوم سياسة التجويع التي انتهجها النظام البائد بالصبر من جانب، وواجه سياسة التخويف والإرهاب التي لجأ إليها في تطويع معارضيه بإيمانه بالله وعدله من جانب آخر، مقتدياً في ذلك بسيّد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم الذي قاوم مقاطعة قريش له ولأصحابه بالصبر على الجوع، وقاوم تخويفهم له ولأتباعه بإيمانهم بالله العادل الذي حرّم الظلم على نفسه وجعله بين عباده محرّماً.

سلطان أولي الأمر في سوريا، كان سلطاناً غير شرعي، وأن ولايتهم كانت ولاية لا تستند إلى شرع إلهي أو قانون وضعي، وأن هذه الولاية إنما تأتت لهم بالقوة الغاشمة وحدها، وبممارساتهم القمعية التي لا تعرف الحدود

وإذا استعاذ الثوار بإيمانهم من جميع صور التخويف التي لجأ إليها النظام البائد، ولاذوا بالصبر على سياسة التجويع المُمَنهج، فقد دلّوا، بالحال قبل المقال، على عبث ممارسات النظام، بل قلّة جدواها، وإخفاقها، وفشلها الذريع في قهر إرادة الشعب السوريّ الصابر، المؤمن، الأبيّ، الذي روّض الأسد المصنوع من ورق مدوّر، بل جعل زعيمه يفرّ مُقِرّاً بعجزه عن مواجهة إرادة شعبه.

وكذلك فقد كان من الطبيعي أن يكون أهمّ ما وعد به الثوار هذا الشعب الأبيّ أن يكفلوا له العيش الكريم، ويبددوا، بل يمحوا من عالَمه، الخوفَ، فيطمئن على توافر لقمة عيشه، ويعيش آمناً مطمئناً على أمنه، ويتحقق له بذلك ما تحقق لقريش إذ أطعمهم الله من جوع وآمنهم من خوف.

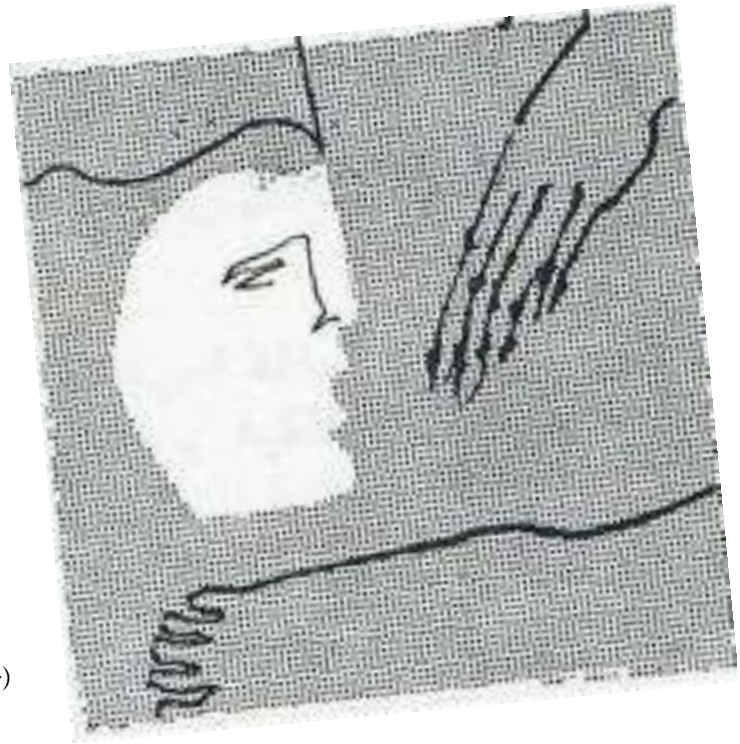

الهوامش

(1) انظر: زكريا تامر، النمور في اليوم العاشر، الطبعة الثالثة، (رياض الريس للكتب والنشر، لندن، 1994م)، ص70-85.

(2) انظر: زكريا تامر، نداء نوح، الطبعة الأولى، (رياض الريس للكتب والنشر، لندن، 1994م)، ص 129.

(3) باتت عبارة جمهورية الخوف شائعة منذ ظهرت ترجمة كتاب كنعان مكية: "جمهورية الخوف"، ثم ما لبثت أن انتشرت في كتابات عدد من الكتّاب والصحفيين المعارضين للنظام البائد. يكتب المرحوم حكم البابا، الصحفي والشاعر وكاتب السيناريو المعروف بمعارضته الشرسة، في مقدّمة كتابه ذي العنوان المستلهم من عنوان مكية: "كتاب في الخوف"، الطبعة الثالثة، (دار الغاوون للنشر والتوزيع، لبنان، 2012م):
"لا يغلب على الصحفي السوريّ شعور أقوى من الخوف إذا أراد أن يكون شاهد عصره ومؤرِّخ لحظته.... ولأن هذا الخوف ليس واحداً أريد أن أفصّل قليلاً داخل قماشته نفسها، فهناك الخوف الذي انتابني أثناء كتابة المقال، والخوف الذي شعرت به يوم نشر المقال وانتظار ردّة الفعل (من جهة السلطة لا من جهة القارئ)، والخوف يوم وصول الاستدعاء لمراجعة المخابرات من أجل المقال، والخوف خلال وجودي داخل بناء المخابرات وخضوعي للتحقيق مع الهواجس التي يستدعيها، ثم الخوف الذي تولّده التجربة وتتركه في النفس بعد انتهائها، ومدى تأثيره في المباشرة بكتابة مقال جديد، أو الصمت والانتظار حتى تنتهي آثار تلك التجربة"" (ص 11).

(4) انظر: زكريا تامر، نداء نوح، الطبعة الأولى، (رياض الريس للكتب والنشر، لندن، 1994م)، ص157-158.